العرب
السبت 2021/08/21
السنة 44 العدد 12155

من الذي عليه أن يقلق من الأوضاع في جنوب سوريا؟

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

منذ عشر سنين والأردن يجد أمنه تحت التهديد المباشر من العمق الاستراتيجي الحقيقي له، ليس الضفة الغربية وفلسطين بالطبع، إنما حوران، حيث الجذور الكبرى للتركيبة السكانية للمملكة الهاشمية التي نشأت بالأصل فوق بادية حوران. اكتفت عمّان بالصبر الطويل، واحتضنت اللاجئين السوريين، ومضت في ركب الدول التي قاطعت نظام الأسد، مثلها مثل غالبية الدول العربية والأسرة الدولية، بسبب العنف الذي بادر به شعبه والذي أدى إلى انهيار سوريا التي كان يعرفها الجميع، وظهور سوريا جديدة تضج بالفوضى والمتطرفين والميليشيات الطائفية والجيوش ذات الجنسيات المتعددة، والتي وصلت نيرانها إلى الأردن حين أحرق تنظيم داعش أحد طياريه حيًا قبل سنوات.

كان العاهل الأردني الملك عبدالله الثاني أول من حذّر من نشوء هلال شيعي في المنطقة، مطالبا الدول العربية بالتصدي للتمدّد الإيراني الذي كان حينها ما يزال في بداياته. واليوم أصبح الأردن في قلب ذلك الهلال، يحيط به من شرقه العراقي، وشماله السوري، ومن جنوبه في اليمن حيث الحوثي.

العاهل الأردني الملك عبدالله الثاني كان أول من حذّر من نشوء هلال شيعي في المنطقة مطالبا الدول العربية بالتصدي للتمدّد الإيراني الذي كان حينها ما يزال في بداياته

مشكلة الأردن وامتيازه في الوقت ذاته، موقعه الاستراتيجي الذي خلق بالتالي دوره المحوري، فجعل منه حجر استقرار للمنطقة، ولذلك فإن أي هزّة يتعرّض لها بوسعها أن تزعزع استقرار الشرق الأوسط برمّته. العرش الهاشمي يدرك هذا، ومثله يفعل العامل الإسرائيلي الذي ينظر بعين القلق أكثر حيال الواقع المستجد في سوريا، لجهة انتشار الميليشيات الإيرانية على حدوده الشرقية الشمالية، حيث الجنوب السوري، علاوة على الجنوب اللبناني حيث حزب الله.

جواب الأردن على السؤال كان بطرح مبادرات حالمة من واشنطن تنص على اشتراط فك ارتباط الأسد لعلاقته مع الإيرانيين كشرط لإعادة العلاقات معه، وعلى رأسها العلاقات الاقتصادية، وهو الوعد الذي قطعه على نفسه الملك عبدالله في لقائه مع شيوخ العشائر الأردنية، حين أعلن أنه سيعيد العلاقات التجارية مع النظام السوري قريبا. ولا يعرف أحدٌ بأيّ ميزان قاس الملك تعهده ذاك حين وجهه لمن يتعرض أبناء عمومتهم من آل الزعبي والمسالمة والمحاميد والحريري وغيرهم في درعا للقتل اليومي على يد النظام السوري ذاته والميليشيات الإيرانية التي تدعمه. لذلك بدا مشروع الأردن الجديد قفزة في الظلام أكثر منه مشروعا جادا لضمان أمن المملكة. إلا إن كان لدى الملك ما يواريه خلف ذلك الطرح، والذي يمكن أن يكون موطئ قدمٍ له نحو حوض اليرموك، ونحو حلٍ للكثير من مشاكل العشائر التي باتت تشكّل له صداعا يغيب ويعود بين الوقت والآخر.

أما على الضفة الأخرى من نهر الأردن، فيفكّر الإسرائيليون بطريقة مختلفة. فالأوضاع في سوريا قرّبت منهم طرائدهم أكثر مما كانوا يحلمون في الماضي، وباتت الطلعات الجوية للمقاتلات الإسرائيلية تصطاد الذخائر والعتاد والمقاتلين الإيرانيين ومن في حكمهم على الأرض السورية، كنوع من التدريبات والمناورات بشكل شبه يومي. إذاً فالهدف يتحقق ولا قلق من المزيد من التمدّد، فالرد دوما حاضر.

ويتردّد أن هناك اتفاقا كان قائما بين الإسرائيليين والروس المتواجدين في الجنوب السوري كضامن لوقف إطلاق النار، بعد التسوية التي أجريت بإشرافهم والتي خرقها النظام السوري عدة مرات، ينصّ على أن يختار الطيران الإسرائيلي أهدافه، دون أن يجري أي ردّ من الروس أو حتى من منظومة أس – 300 التي قدموها لجيش الأسد، في حال كان هدف القصف ضرب المواقع الإيرانية. غير أن الإسرائيليين لا يبدون مرتاحين كثيرا للدور الذي يلعبه الروس في الفترة الأخيرة، فقد ارتخت قبضتهم في ما يبدو حيال الحد من انتشار الميليشيات الشيعية في الجنوب السوري، ومردّ ذلك إلى رسائل يريد الروس إيصالها إلى الأسد، حتى أنهم منعوه من التقدّم أكثر باتجاه درعا البلد وأسهموا مجددا في ترتيب اتفاق هش لوقف إطلاق النار خلال الأيام الماضية.

آخر ما يشغل بال الإسرائيليين القلق من النفوذ الإيراني في الجنوب السوري، وإن قالوا غير ذلك، في حين أنهم يدركون تماما أن الأردن لن يهتدي إلى الفكرة الصحيحة لا اليوم ولا غدا. ففي الوقت الذي يتمركز الجيش العربي على الحدود السورية الأردنية، على مرمى حجر من القصف السوري والإيراني لدرعا وبلداتها، تبدو الخطوة التي يتمنّع عنها كفيلة بتغيير خارطة المنطقة. ولا شيء يدعو للقلق أيضا من جانب الأردن حسب نصائح المستشارين، ما الذي يمكن أن يتسلّل من خلف تلك الحدود؟ كل ما يمكن أن يصدّره لهم الأسد بضعة أطنان من الكبتاغون، أما الأمن فهو غير معرّض لأي تهديد، حتى وإن قال الملك في آخر إطلالة له في واشنطن إن بلاده تعرّضت لهجوم بمسيّرات إيرانية. بالنسبة إلى الإيرانيين لم يحن بعد دور الأردن، وقد لا تكون هناك حاجة لذلك.

إيران تفخّخ سوريا في حقيقة الأمر، ليس فقط في الجنوب، بل في كل مكان وصلت إليه، في المنطقة الشرقية، وحتى حدود العراق، وفي حلب وفي حمص وفي قلب دمشق، والجنوب هو الوحيد الذي يستعصي عليها بسبب المعادلة الروسية، وهذا ما لا يقرأ في ما بين سطوره الأردن ولا المعنيون بالأمن القومي العربي في المنطقة. فمن يحكم القبض على حوران تصبح الجزيرة العربية وغرب المتوسّط، بالنسبة إليه، على مسافة "رمية عصا" ولن يشكّل الأردن أي عائق عندئذ أمام التكنولوجيا المتقدّمة التي وصلتها الصناعة العسكرية الإيرانية، الجهة الوحيدة التي تحارب في المنطقة حربا شرسة جادّة تدعم وكلاءها وترسّخ وجودهم، لا حربا عبثية تعتمد على من لا تثق بهم.

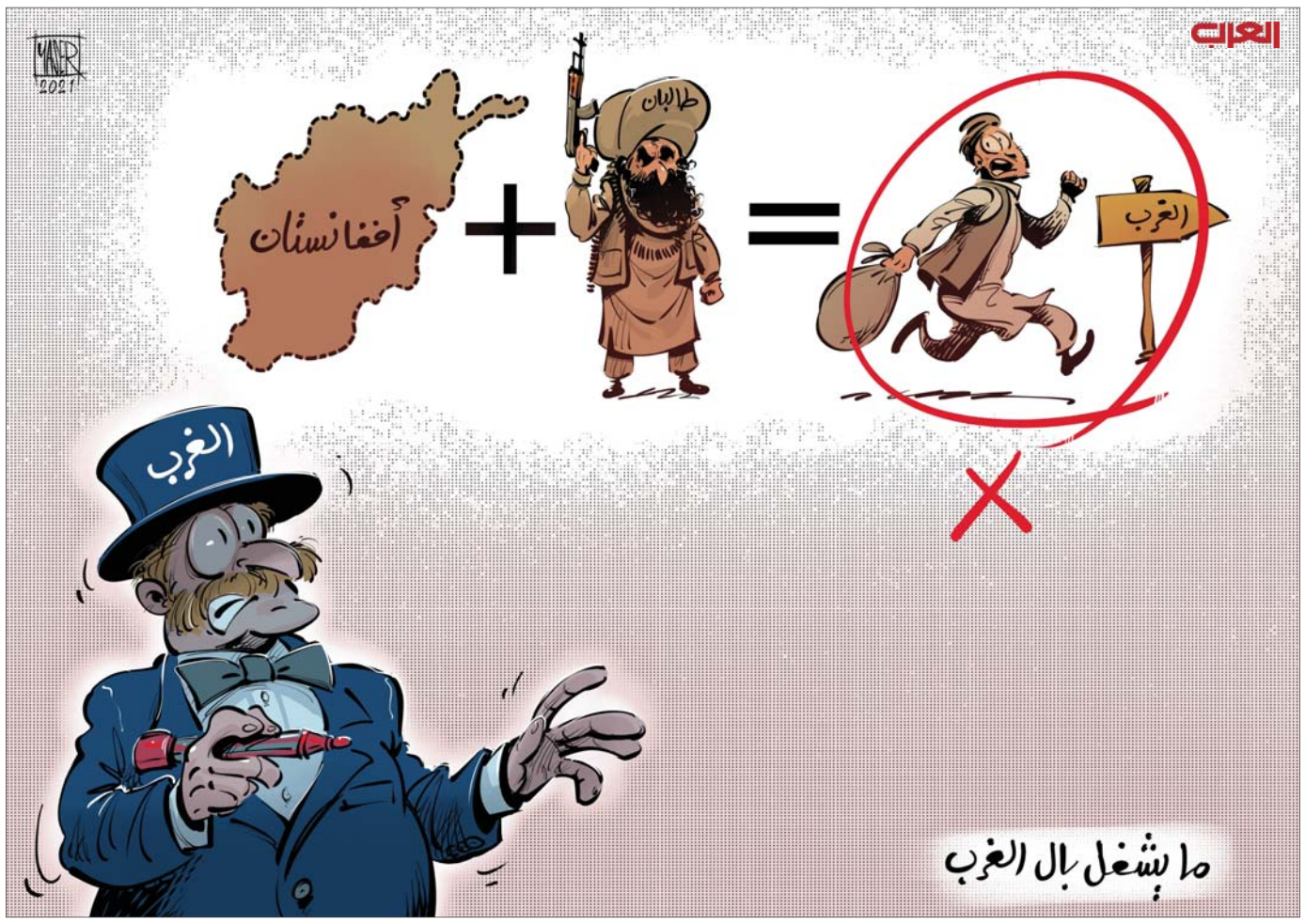

محاولة لتزييف وقائع الحرب الإيرانية العراقية

د. باهرة الشيخلي
كاتبة عراقية

مضت أكثر من أربعة عقود على تاريخ الحرب الإيرانية العراقية، إلا أن الجدل بقي دائرا حول مسؤولية اندلاعها ومن بدأها، ومن أطلق شرارتها الأولى ومن يتحمل أوزارها. ورغم البيانات الجلية والوقائع الموثقة فإن هناك من يحمل العراق مسؤولية بدء الحرب لنوازع شتى، ناسيا أو متناسيا أن النزاع المسلح بين البلدين، كان في مقدماته ومآلاته تدبيرا مسبقا وتصميما قاطعا على إسقاط الدولة العراقية، طبقا لأولويات ولاية الفقيه وتنفيذا لاستراتيجيتها العقائدية (تصدير الثورة)، التي انتهجها العقل السياسي الإيراني وما يزال مستمرا عليها.

إذا لم تتوافر فرصة إسقاط النظام في بغداد من الداخل، يتعين في هذه الحالة العمل على إزاحته من الخارج! وهو ما أكده الخميني من منبر حسينية جماران في ندائه التعبوي، في الثامن والعشرين من يناير 1980، نداء تصدير الثورة "ليعلم الجميع أن ثورة الحادي عشر من فبراير معنية بتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها، وأن جميع المذاهب تعرف أن مذهبنا هو مذهب الدم والسيف". وجاءت الوثيقة الدستورية لتؤكد إصرار الجمهورية الدينية على أن المهمة العسكرية الإيرانية لا تقتصر فقط على حماية الحدود الإيرانية، بل إلى ما وراءها "إن جيش الجمهورية الإسلامية وقوات حرس الثورة لا يتحملان فقط مسؤولية حفظ وحراسة الحدود، وإنما يتكفلان أيضا بحمل رسالة عقائدية أي الجهاد في سبيل الله.. والنضال من أجل توسيع حاكمية قانون الله في أرجاء العالم". ليصبح التدخل الإيراني بالشأن الوطني للدول العربية والإسلامية، بموجب المادة (12) من دستور الجمهورية الوليدة أمرا شرعيا.

يرى الباحث في الشؤون الإيرانية عبدالستار الراوي الذي شغل منصب سفير العراق في طهران، قبل احتلال العراق، أن صفحة النزاع الإقليمي والدولي انطلقت من نظرية الثورة الدائمة، حاملة رسالة "ولاية الفقيه" أو "مدينة الله" التي تشمل الأمم كافة، وتخضع لسلطانها ذرات الكون.

هناك، الآن، من يحاول تزييف الوقائع بالادعاء أن جواب الخميني على تهنئة الرئيس العراقي أحمد حسن البكر للقيادة الإيرانية بالانتصار، كان وديا، وليس مثلما يُتداول بأنه ختمها بـ"والسّلام على مَن أتبع الهدى"، في حين أن الخميني، بهذه العبارة، اعتبر الحرب بين "الإسلام والكفر"، أو "القرآن والإلحاد"، كما يقول الكاتب رشيد الخيون، إذ خاطب العراقيين "لنتحد للقضاء على هذا النظام... وملاحقة أتباعه، وإعدام وتصفية مَن يأبى العودة إلى الإسلام. ونعمل معا على إقامة دولة إسلاميّة في العراق، وفي كل بقعة من بقاع الأمة الإسلاميّة" وقد نُفذ ذلك بعد عام 2003 بتصفيات فظيعة، واستمر تصدير الثورة قائلا "حربنا هذه حرب العقيدة، لا تعرف الجغرافيا والحدود، وفي حربنا هذه علينا أن نُكرس جهودنا للتعبئة الكبرى لجند الإسلام في العالم بأسره".

ولو لم تضع الحرب الإيرانيّة العراقية أوزارها يوم الثامن من أغسطس 1988، بقبول الخميني القرار 598، حسب الخيون نفسه، لانتهت بوفاته في الثالث من يونيو 1989، إذ كان مُصرا متعصبا لاستمرارها، مع محاولات العراق لوقفها مبكرا، عام 1982، بعد استرجاع إيران أراضيها.

حرب الأحقاد، هكذا سماها الدكتور علي سبتي الحديثي وهو الباحث العريق بالشأن الإيراني، المزود بخبرة أكاديمية في القانون، والسفير المتميز، تشهد له تجربته الدبلوماسية العميقة، في كتابه "الحرب الإيرانية العراقية: 1980 – 1988 ضغوط التاريخ وأوهام القوة"، إذ تتبدى في هذه الحرب دوغماتية العقل السياسي الإيراني والعناد الأعمى، والقرار المسبق على تغذية النزعة العدوانية تجاه العراق، فأوصد الخميني كل الأبواب أمام المساعي الحميدة، ولعل خير شاهد على تعنته هو الدكتور موسى الموسوي، وفي هذا المقام يبقى كتابه "الثورة البائسة" واحدا من أهم الشهادات في هذا المجال، عدا مبادرات أخرى كانت تصب في الاتجاه نفسه، من بينها مبادرة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، وجهود حركة عدم الانحياز وغيرها..

لكن المصطلح الأكثر خطورة في كتاب الحديثي والذي ركز عليه بعد أن وقع فيه غالبية الباحثين، وهو مصطلح "الحرب العراقية/ الإيرانية" كمؤشر على أن صياغته على هذا النحو المتداول، يعني أن العراق هو البادئ بهذه الحرب، وعلى النقيض من ذلك فإن الوقائع الموثقة وتداعيات الأحداث كلها تؤكد على أن إيران كانت هي الساعية إليها، ولذلك ينبغي أن يعدل المصطلح إلى "الحرب الإيرانية العراقية".

استنادا إلى شهادة الدكتور موسى الموسوي الذي كان يعمل مستشارا للخميني في تلك الحقبة، أن المرشد الأعلى عندما اطلع على رسالة الرئيس البكر علق بالقول "إن صدام خائف"!، لأن الشعب العراقي سيؤيده عندما سيدعوه إلى إسقاطه.. ولم يذكر البكر في تعليقه.

وكان الخميني يواصل، منذ الأيام الأولى للثورة الإيرانية، نداءاته التحريضية المتكررة بوجوب تصدير الثورة، وضرورة تحرير العتبات المقدسة من قبضة النظام الكافر في بغداد، مطالبا العراق بنقل رفات الإمام علي بن أبي طالب من النجف وإعادة دفنه في الأراضي الإيرانية.

ولتأكيد أن الحرب الإيرانية على العراق كانت حرب أحقاد، فعلا، أن الخميني كان يصرح بـ"أن الطريق نحو فلسطين يمر عبر كربلاء"! و"من بغداد"، فضلا عن الحملات الإعلامية ضد العراق، إذ كانت الإذاعة العربية الموجهة تحث العراقيين على القيام بالتمرد المسلح ضد الدولة وتدعو إلى إسقاط النظام، وتحرّض على قتل المسؤولين والبعثيين.

لتأكيد أن الحرب الإيرانية على العراق كانت حرب أحقاد تكفي الإشارة إلى تصريحات الخميني بأن الطريق نحو فلسطين يمر عبر كربلاء ومن بغداد فضلا عن حملات إعلامية تحث العراقيين على التمرد

هذا كله إذا ضربنا صفحا عن الاختراقات الحدودية، التي بدأت في الرابع من أبريل 1980 حين احتلت القوات الإيرانية مناطق زين القوس وسيف سعد، وهي أراض عراقية منزوعة السلاح، اعترفت الحكومة الإيرانية أنها أراض عراقية بموجب اتفاقية الجزائر 1975، واستخدمت القوات الإيرانية المدفعية الثقيلة في قصف مناطق: مندلي وخانقين وزرباطية، وفي الثامن والعشرين من يوليو 1980 قصفت القوات الإيرانية بالمدفعية الثقيلة مخفر الشيب، ثم في الرابع من سبتمبر 1980 عادت لفتح نيرانها مجددا على المدن نفسها، مسببة خسائر في الأرواح والممتلكات. وفي الثامن عشر من سبتمبر 1980 بدأت القيادة المشتركة للجيش الإيراني والحرس الثوري وقوات التعبئة (الباسيج) بإصدار بيانات عسكرية عبر إذاعة طهران، وأصدرت ثمانية بيانات بين الثامن عشر والحادي والعشرين من سبتمبر 1980. تتحدث البيانات عن قيام القوات الإيرانية بأنشطة عسكرية ضد الأهداف العراقية. وفي البيان السابع في الحادي والعشرين من سبتمبر أعلنت القيادة الإيرانية النفير العام، تنفيذا لأمر رئيس الجمهورية الإيرانية والقائد العام للقوات المسلحة، كما اخترقت إيران، بنحو متكرر، الأراضي العراقية، وخلفت قواتها وقتلت المدنيين وفجرت المناطق الحدودية واغتالت أفراد الدوريات السيارة والراجلة.

بعد هذا كله، واضح أن محاولات تزييف الوقائع بشأن الحرب الإيرانية العراقية تتجدد، بين حين وآخر، بهدف انتزاع تعويضات عن تلك الحرب لصالح إيران، خصوصا وأن الدولة العراقية في أضعف حالاتها، الآن، وهذه المحاولات بدأت، بعد احتلال العراق سنة 2003، وقد عبر عنها صراحة أحد موالي إيران عبدالعزيز الحكيم عندما صرح أن العراق يتعين عليه دفع تعويضات لإيران عن تلك الحرب، وردد ذلك غير واحد من موالي ولاية الفقيه.